مقدمات مفاهيمية

إن من أهم الأسئلة التي يمكن طرحها في تعاطينا المبدئي مع وحدة المناهج الكمية هي : هل المناهج الكمية أو الكيفية غاية في ذاتها أم مجرد وسيلة لا أقل ولا أكثر ؟.

لا جدال اليوم في كون المناهج والتقنيات البحثية عبارة عن وسائل وأدوات يستعين بها الباحث، سواء من داخل العلوم التجريبية أو الانسانية الاجتماعية، من أجل بناء معرفة علمية بموضوع أو موضوعات معينة، كالموضوعات في علم الاجتماع التي تخص الظواهر أو الوقائع الاجتماعية. الشيء الذي يفرض علينا في هذا المنطلق التمهيدي التطرق إلى بعض المفاهيم المؤطرة وذات الصلة بالوحدة ككل من قبيل : العلم - النظرية العلمية – المنهج العلمي .

1) العلم :

تتجاذب عملية تعريف العلم عدة مداخل أو زوايا نظر ، من بينها النظر إليه أولا من خلال موضوعه فيتم التمييز بين (علم طبيعي، وعلم انساني أو اجتماعي...)، أو النظر إليه من خلال منهجه (مناهج استنباطية، مناهج استقرائية....)، أو من حيث الغاية منه هل هي غاية معرفية نظرية بالأساس أو عملية تطبيقية بالدرجة الأولى.

وعلى العموم فقد صار العلم موضوعا للتعريف وإعادة التعريف تبعا لتطور منجزات العقل البشري وتطور المعرفة العلمية ذاتها. والاهتمام به كموضوع للتعريف والفهم هو ما تنصب عليه الابيستمولوجيا. حيث أن دومينيك لوكور Dominique Lecourt في كتابه Pour une critique de l’épistémologie يرى أن " على الإبيستمولوجيا أن تخضع مصطلح العلم لدراسة نقدية". إضافة إلى تعريف مانويل كاستيلس Manuel Castells وإيميليو ذي إيبولا Emilio de Ipola للابيستمولوجيا على أنها ممارسة اليقظة تجاه العمليات (المفهومية والميتودولوجية) ذات العلاقة بممارسة علمية، حيث تهدف هذه اليقظة إلى إلغاء أو تحييد فعالية العوائق الابيستمولوجية التي تمس إنتاج المعارف". [1]

وبالعودة إلى المعاجم والقواميس في تعريفها للعلم نجد مثلا قاموس ويبستر الجديد Webster يعرفه على أنه المعرفة النسقية التي تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب، والتي تتم بغرض تحديد طبيعة وأسس وأصول ما تم دراسته". وأما قاموس أكسفورد المختصر Oxford فعرف العلم بأنه " ذلك الفرع من الدراسة الذي يتعلق بجسد مترابط من الحقائق الثابتة المصنفة، والتي تحكمها قوانين عامة، وتحتوي على طرق ومناهج موثوق بها لاكتشاف الحقائق الجديدة في نطاق هذه الدراسة". وفي المعجم الوسيط باللغة العربية هو من فعل علم أي أدرك بمعنى" إدراك الشيء بحقيقته" سواء بشكل نسبي أو كلي . أما كارل بيرسون Kart Person فقد تحدث عن العلم قائلا " إن ميدانه غير محدود ومادته لانهاية لها، كل مجموعة من الظواهر الطبيعية ، كل طور من أطوار الحياة الاجتماعية، كل مرحلة من مراحل التطور القديم أو الحديث كل ذلك يعتبر مادة للعلم ". (تعريفات تخص المفهوم بمعناه العام الذي يتضمن الطبيعة والاجتماعية). [2]

---

[1] قيس مرزوق الورياشي ، الكم والكيف في علم الاجتماع: أية علاقة؟ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 100، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، تنسيق المختار الهراس ، الطبعة الأولى 2002، ص ص 23- 24.

[2] إبراهيم أبراش، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة الأولى 2009، ص ص 31-32.

وعلى هذا الأساس فالعلم إجمالا هو المعرفة الهادفة والمنظمة أو المعرفة المنهجة , وهذا يعني أن العلم معرفة، ولكن ليس كل معرفة علم . فحتى تكون المعرفة علما لابد أن تتوسم طرق البحث العلمي في اكتساب حقائقها، وأن تأخذ بالمنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والمقارنة والاستقراء. الشيء الذي يجعل من العلم وسيلة للوصول إلى الحقيقة وليس هدفا، إنه أداة في التفكير وأسلوب في الممارسة ابتكره الانسان لزيادة قدرته في اكتشاف النظام السائد في الكون وفهم قوانين الطبيعة والاجتماع . وهو ما يجعل الغاية من الدرس وطلب العلم ليس جمع المعلومات واستظهارها بل النشاط الفكري والحصول على الملكة، والتي بها يستطيع العالم أن يستنبط ويستخرج الأحكام في دراسته للظواهر والموضوعات العلمية. وهذا ما يجعل العلم مرتبط بالابتكار والابداع . وهو ما ذهب إليه ابن خلدون في كتابه المقدمة بالقول " إن الحدق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفن المتناول حاصلا....".[3] كما أن براثويت R ,B, Braithwaite في كتابه **التفسير العلمي** Scientific Explanation" يرى أن وظيفة العلم هي في إقامة القوانين العامة التي تحكم اكتشاف الاحداث الواقعية أو المسائل التي يبحثها ومن تم تساعدها على الربط بين ما توصلنا إلى معرفته من أحداث كما تمكننا من التوصل إلى تنبؤات ثابتة تتعلق بتلك الاحداث التي لا تزال غير معروفة" [4].

وفي ذات السياق نجد الباحث فان دالين في كتابه " **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**" يحدد ثلاثة أهداف كبرى للعلم وهي:

أ) زيادة قدرة الانسان على تفسير الأحداث : وذلك من خلال الكشف عن الأسباب وإدراك الارتباطات الموجودة بين الظواهر المراد تفسيرها، علما بأن تفسير الظاهرة ومعرفة أسباب حدوثها شرط أساسي لفهمها، بغية الوصول إلى قوانين ونظريات تكون على درجة كبيرة من العمومية والشمول، تتناول كل الظواهر المماثلة وتنظمها في قاعدة واحدة. ولهذا يشكل التفسير بالنسبة لعالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر قوام العلم، لأنه يجعل الفهم ممكنا.

ب) التنبؤ : لا يكتفي العلم من خلال الباحث بتفسير الظواهر المدروسة فقط، بل يسعى إلى مرحلة التنبؤ بما هو التأكد من انطباق المبادئ أو القواعد العامة التي تم التوصل إليها على حالات اخرى في أوضاع مختلفة عن تلك التي سبق استقراؤها، ولكنها تنتمي لنفس نوع الظواهر. وهذا ما يجعل من وظيفة التنبؤ تطوير المعرفة العلمية والبحث العلمي . إلا أن المسألة في مجال العلوم الاجتماعية تبقى مستعصية، نظرا لتعقد الوقائع الاجتماعية بسبب تداخل العوامل الذاتية والموضوعية فيها.

ج) الضبط أو التحكم : أي التحكم في العوامل الأساس التي تسبب حادثا ما، لكي تحمله على التمام أو تمنع من وقوعه. وإذا كان الأمر ميسرا في العلوم الطبيعية، فهو في مجال العلوم الاجتماعية أكثر صعوبة، نظرا لما تتميز به الظاهرة الاجتماعية من خصوصيات .

2) النظرية العلمية

تشكل عملية التنظير عماد العلم الحديث والوحدة الأساس في نسق التفكير العلمي، فلا وجود لعلم بدون نظريات علمية. فهي الانجاز المعرفي الأهم والأعلى في العلم. فالمعرفة التجريبية أو الميدانية تستلهم النظريات العلمية، كما أن نتائجها قابلة للتحول بدورها إلى نظريات علمية.

والمفهوم في دلالاته يحظى بتعريفات عدة من أهمها " أنها بناء تصوري يبني الفكر ليربط بين مبادئ ونتائج معينة" أو " إطار فكري يفسر مجموعة من الحقائق العلمية ويضعها في نسق علمي مترابط . وأنها تفسير لظاهرة معينة من خلال نسق استنباطي

---

[3] عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ط 3، 1967، ص 769.

[4] محمد علي محمد، مقدمة في البحث الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص 14.

"أو " مجموعة من القضايا التي ترتبط بطريقة علمية منظمة، والتي تعمل على تحديد العلاقات السببية بين المتغيرات" أو " مجموعة مترابطة من المفاهيم والتعريفات والقضايا التي تكون رؤية منظمة للظواهر عن طريق تحديدها للعلاقات بين المتغيرات بهدف تفسير الظواهر والتنبؤ بها". كما يعرفها **أرنولد روس** **A , Ross** في كتابه " النظرية والمنهج في العلوم الاجتماعية Theory and method in the social science بأنها " بناء متكامل يضم مجموعة تعريفات وافتراضات وقضايا عامة تتعلق بظاهرة معينة بحيث يمكن أن يستنبط منها منطقيا مجموعة من الفروض القابلة للاختبار". وهو ما دفع بالفيلسوف **كارل بوبر** Karl Popper في كتابه " **منطق البحث العلمي** "إلى الربط بين افتراضية العلم ونسبية النظرية ، فالنظرية العلمية هي النظرية القابلة للاختبار . **أما كلود برنارد** فقد وصف مفهوم النظرية بالقول " بأنها مجرد درجات نستريح عندها حتى نتقدم في البحث، فهي **تعكس** الوضع الراهن لمعرفتنا، ولذا يجب الا نؤمن بها إيمانا بعقائد الدين، وأن نعدلها تبعا لتقدم العلم".[5]

ومن زاوية علم الاجتماع نجد السوسيولوجي الأمريكي **روبرت مرتون Robert Merton** يميز بين تفسير الظواهر الاجتماعية من ناحية، والنظرية السوسيولوجية من ناحية أخرى ، حيث يرى أن النظرية يجب أن تسبق التفسير وتوجهه. فلا يمكن لباحث ميداني أن ينطلق من فراغ، بل يكون غالبا مسترشدا بنظرية وبأفكار اجتماعية مسبقة تنير له الطريق دون الوقوع في الصنمية النظرية. ولهذا طالب مرتون Merton بصياغة نظريات متوسطة المدى بدلا من إقامة انساق نظرية بالغة العمومية والتجريد. كما ربط بين الجانب التنظيري وجانب البحث الميداني، فالنظرية في رأيه ما هي إلا ضرب من التقنين ، بمعنى أن مهمتها تتمثل في تنظير التعميمات الامبريقية التي يمكن التوصل إليها من خلال دراسة الصور الاجتماعية المختلفة للسلوك. **وهذا** ما يجعل من النظرية العلمية نظرية نسبية قابلة للتعديل والتغيير ،بتطور الاكتشافات العلمية ، وبتطور الحياة الاجتماعية والمعرفة الانسانية ايضا. لأن الواقع هو المحك العلمي لتأكيد مصداقيتها وعلميتها ، فهي في علاقة جدلية معه تتطور به ويتطور بها . الشيء الذي يمكن القول معه أن النظرية أو النظريات العلمية في جميع التخصصات العلمية وفروعها تتلخص في تصنيف الوقائع وتفسيرها، من خلال فروض ومسلمات تخضع دائما للمراجعة وإعادة النظر عندما تستجد وقائع لم تعد تتوافق معها. فهي جزء من العلم بكونها تعميم وتركيب محدد ومؤقت دائما.

3) المنهج العلمي

يعد مفهوم المنهج العلمي في طليعة المفاهيم التي يمثل استيعابها وتوظيفها مسألة جوهرية في العلم بصفة عامة، لكونه مفهوما يتبوأ موقعا مرموقا في الخطاب المعرفي والثقافي معا، فمن خلاله يكون العقل قادرا على مواجهة الواقع والوقائع، لأنه في كنهه ألية ايجابية فعالة لتعامل الباحث مع وقائع عالمه، تقوم على التآزر والتحاور بين قدرات الذهن ومعطيات الحواس. إنه مجموع العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم بلوغ الحقائق المتوخاة، مع إمكانية تبيانها والتأكد من صحتها.[6]

وكلمة منهج Méthode مأخوذة من اللفظ اللاتيني Methodus المأخوذة بدورها عن اليونانية، حيث استعملها افلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، بينما أرسطو استعملها بمعنى بحث، أي أن المنهج وسيلة المعرفة وطريقة الخروج بالنتائج الفعلية من الموضوع المطروح للدراسة، أو هو الطريقة المتبعة في دراسة موضوع ما للتوصل إلى قانون أو نتائج أو محصلة عامة. كما هو أيضا ترتيب الأفكار ترتيبا دقيقا، بحيث تؤدي إلى الكشف عن حقيقة مجهولة أو البرهنة على صحة حقيقة معلومة. وهذا ما يجعل منه مجرد أسلوب يسير على نهجه الباحث لكي يحقق الهدف من بحثه، كأن يجد إجابة مناسبة للسؤال الذي يطرحه، أو يستطيع التحقق من الفروض التي يبدأ بها بحثه. وهذا ما يجعل منه مجموعة من الأسس والقواعد والخطوات المنهجية التي

---

[5] ابراهيم ابراش، مرجع سابق، ص ص 54- 56 (بتصرف)

[6] محمد الويز، المنهج السوسيولوجي، مجلة دراسات، كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير، العدد الرابع عشر، 2011، ص 175.

يستعين لها البحث في تنظيم النشاط الانساني الذي يقوم به من أجل التقصي عن الحقائق العلمية أو الفحص الدقيق لها. بمعنى أن المنهج هو الاستراتيجية العامة أو الخطة التي يرسمها الباحث لكي يتمكن من حل مشكلة بحثه أو تحقيق هدفه. إنه الطريقة المؤدية إلى الكشف عن الحقيقة بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة، وهذا كله هو ما يوصف بالمنهج العلمي الذي لا ينفصل عن المعرفة العلمية، فهو تقنيتها وعمادها بدونه لا تكتسب. [7]

وبما أن المنهج العلمي هو أسلوب للتفكير والعمل يعتمده الباحث لتنظيم أفكاره وتحليلها وعرضها، وبالتالي الوصول إلى نتائج وحقائق معقولة حول الظاهرة موضوع الدراسة، فهو يختلف باختلاف الظواهر والمشكلات المدروسة، فما يصلح من منهج لدراسة ظاهرة معينة قد لا يصلح لدراسة ظاهرة أخرى ليس فقط في العلوم الاجتماعية بل حتى الطبيعية. لكن هذا لا ينفي إمكانية دراسة ظاهرة ما باعتماد أكثر من أسلوب أو منهج علمي، وهذا ما يعرف بمصطلح " التعدد المنهجي".[8]

وإذا كان المنهج يعني الأساليب والمداخل المتعددة التي يستخدمها الباحث في جميع البيانات اللازمة لبحثه والتي سيصل من خلالها إلى نتائج أو تفسيرات أو تنبؤات أو نظريات، فإن مصطلح Methodology أشمل ويعني علم المناهج. الذي يبحث في نجاعة أو عدم نجاعة تقنية من التقنيات أو منهج من المناهج لمقاربة الواقعة الاجتماعية التي تم اختيارها كموضوع للدراسة. وبهذا الصدد يرى عالم الاجتماع الأمريكي بول لازرسفيلد Paul Lazarsfeld "أن علم الاجتماع يدرس الإنسان في المجتمع، بينما المينودولوجيا تدرس عالم الاجتماع في العمل".[9]

[7] عبد الرحمن البدوي، مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، 1963، ص 1-5.

[8] انظر: سامي عبد العزيز الدامغ، التعدد المنهجي، أنواعه ومدى ملاءمته للعلوم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 24، عدد 4، السنة 1996.

[9] Paul, Lazarsfeld, Problèmes de méthodologie, in, Philosophie des sciences sociales, ed, Gallimard, Paris, 1970 ;p 275.